المثقفون ومعركة الوعي والتصميم

ادريس الناقوري

حين التقيت، مصادفة، بالدكتور سهيل ادريس كان طبيعياً أن يشدنا الحديث الى أحداث الغزو الصهيوني للبنان والى مأساة العرب في بيروت. ولما أطلعني على صيغة الاستفتاء الذي تنوي «الآداب» نشره مرحباً بمشاركة بعض الكتاب المغاربة فيه، ورغب إليَّ في الاجابة عن السؤال، أحسست بشعورين متضاربين:

ـ ابتهاجي بهذه المبادرة التي أكدت لي استمرار الحياة في لبنان وفي بيروت خاصة، واثبتت إرادة سكان هذا البلد المنكوب في الحياة، وعزم مثقفيه على مواجهة التحدي الصهيوني الامبريالي عن طريق مواصلة النضال الثقافي والفكري.

ـ التحفظ الذي ساورني وأنا أعيد قراءة الصيغة التي طلب إليَّ المشاركة في الاجابة عنها.

فالسؤال في شطره الأول يشير الى الماضي ويدين بطريقة غير مباشرة المثقفين العرب عامة والكتاب منهم بخاصة، ويطالبهم بمراجعة أفكارهم واعادة تقييم دورهم في مسيرة النضال العربي... وهذه الصيغة التعميمية هي، بالضبط، ما يثير التحفظ. أما الشطر الثاني فهو يتجه الى المستقبل ويطرح دور الثقافة العربية الجديدة.

والسؤال بجزئيه متكامل لأنه يطرح قضية واحدة لا سبيل الى الفصل بين طرفيها.

إن الثقافة العربية هي المثقفون العرب، والمثقفون العرب جزء من المجتمع العربي بكل تناقضاته وصراعاته، بكل مطامحه ومشاعره، بكل سلبياته ومظاهره المشرقة الوضاءة.

والمجتمع العربي ليس سوى هذه القوى المختلفة التي تتساكن وتتعايش فوق أرض واحدة، تخوض صراعات يومية من أجل العيش والبقاء، وقد تحركها اهداف واحدة تختلف سبل تحقيقها من فئة لأخرى وتتباين وسائل تنفيذها من طبقة الى طبقة...

لذلك أول ما ينبغي ان نقوم به ـ في سبيل الاجابة عن السؤال ـ هو تحديد المسؤولية وتعيين الاطراف المسؤولة عن الهزيمة او عن النكسات المتواصلة التي لحقت بالمجتمع العربي منذ اربعة أو خمسة عقود من الزمان. إن التحديد يصبح هنا مسألة ضرورية.

في اعتقادي، تبدو دعوة المثقفين العرب، بما فيهم الكتّاب، الى مراجعة أفكارهم واعادة تقييم دورهم، غير واردة على اطلاقها. فهناك مثقفون عرب قاوموا الصهيونية وحذروا من أخطارها وأنتجوا بالفعل ثقافة جديدة وأصيلة، دافعوا عن التغيير وطرحوا بدائل الاوضاع العربية المزرية وطالبوا بتحقيق الديمقراطية والعدالة والحرية في المجتمع العربي، وضحوا من أجل هذه الاهداف. وهناك صنف آخر من المثقفين كانوا بممارساتهم وكتاباتهم سبباً من أسباب الهزيمة وفي استمرار المآسي العربية.

مرة أخرى، لابد من تحديد المسؤولية، ليس من أجل ترتيب الادانة فحسب، ولكن أيضاً من أجل مكامن الداء ومواطن الخلل وحتى يتأتى ايجاد الدواء الناجع والحل الملائم.

لقد بدأنا في هذه الخطوة بطريقة عملية منذ ٦٧ وعلينا السير فيها وتعميقها الى الحد الأقصى.

ما الدور الذي ينبغي ان تضطلع به الثقافة العربية الجديدة للاسهام في الخروج من الهزيمة وتجنيب الجيل العربي القادم اليأس والاستسلام؟

انه لشيء مقرف ان نعود الى لوك كلمات وعبارات طالما كررناها ورددناها بدون جدوى حتى افرغت من محتواها وفقدت مدلولها الحقيقي: الالتزام، الثقافة الجديدة، الفكر الطليعي...

هل بقي لهذه الكلمات من معنى وماذا تستطيع في واقعنا العربي المهزوم المتخاذل؟

في ضوء الأوضاع العربية الجديدة التي ترتبت عن الهزيمة، عن أحداث بيروت ومأساة الفلسطينيين في صبرا وشاتيلا، يطرح التساؤل عن الثقافة العربية الجديدة: ما طبيعتها وما هي الخصائص التي يجب أن تتوافر لها حتى تكون حقاً جديدة وفعالة، تمارس الدور المنوط بها في تحرير الانسان العربي وفي تخليصه من رواسب الهزيمة والسقوط.

ان هذه الثقافة الجديدة لن تكون شيئاً آخر غير انتاج المثقفين العرب الذين ارتبطوا بقضيتهم العربية فعلا ودافعوا عن استمرار الوجود العربي والحضارة العربية واعتبروا القضية الفلسطينية وقضية الثورة العربية عامة قضيتهم وهمهم في الحياة فكرسوا لها وقتهم وجهدهم وأموالهم وأنفسهم وخدموها بكل هذه الوسائل، اي بفكرهم وثقافتهم. هؤلاء المثقفون هم الذين انتجوا وسينتجون ثقافة عربية جديدة أدت حتى الآن ــ وإن جزئياً ــ وستؤدي الدور المنوط بها في تحرير الانسان العربي من الخوف والهزيمة والاستسلام بشتى أشكاله وأسبابه.

وحتى تنتج هذه الثقافة العربية الجديدة فاعليتها وتقوم بدورها كاملا لا بد من أن يساهم فيها المثقفون العرب بوعي واخلاص، ولا بد كذلك من حمايتها من الدخلاء ومن المثقفين المغشوشين والكتّاب المزيفين الذين تحركهم اهداف أخرى غير الاهداف الشريفة المتمثلة في التحرير والعدالة والتقدم والتي لا تعدو في الواقع ان تكون وسائل لإسعاد الانسان العربي وتحقيق ذاته تحقيقاً كاملا يجعله يشارك في بناء الحياة الكريمة الخالية من الظلم والجوع والفقر والخوف.

صحيح أن تحقيق كل هذه المثل والقيم السامية يستدعي خوض صراع مرير على جبهات مختلفة، ولكن واجب المثقفين الأصلاء يكمن هنا ويستوجب الوعي الجاد والثوري بضرورات المعركة وبمتطلبات النضال الصلب ضد جميع أشكال الزيف والاستلاب والتخاذل والتشويه. كما أن هذا الواجب يفرض عليهم فضلا عن ذلك التسلح بثقافة علمية لمواجهة تحديات الواقع العربي أولا وشراسة العدو الصهيوني ثانياً.

إن النضال المستمر على هذين المستويين معاً هو قدر الثقافة العربية الجديدة وهو ضمان وجودها وأساس قوتها وفعاليتها. وفي ظني أن هذا النضال لا يمكن ان يستمر الا باتحاد المثقفين المخلصين وبالتفافهم حول برنامج واحد للاتفاق على حد أدنى.

إن المثقفين العرب هم في الواقع طليعة قوى الشعب الثورية. وهذه العبارة تشمل الزعماء السياسيين والنقابيين والنخب المفكرة من اقتصاديين ومؤرخين وفلاسفة ومهندسين وعلماء وكتّاب الخ... وكل هذه الفئات تنضوي تحت لواء جمعيات واتحادات عربية متعددة.

لذلك يمكن التفكير في تنظيم ندوة فكرية تضم ممثلين عن هذه الاتحادات والجمعيات، من المثقفين العرب لمناقشة الاوضاع العربية الراهنة وفي مقدمتها الثورة الفلسطينية لتعبئة الرأي العام العربي اقناع اصحاب القرار في الدول العربية بضرورة الاستجابة لمطامح وتطلعات الشعوب العربية في التحرير والكرامة والديمقراطية.

إن المسألة، كما لا أحتاج الى القول، ترتبط بالصراع بمختلف مستوياته ودرجاته وبجميع أشكاله وملابساته.

وإذا لم يخض المثقفون العرب هذا الصراع بوعي وتصميم واذا لم يتحملوا مسؤ ولياتهم كاملة تجاه شعوبهم وجماهير امتهم فلن تتمكن الثقافة العربية من الاضطلاع بدورها الحقيقي ولن يقيض للجيل العربي القادم غير المزيد من الهزائم والنكسات. ان العلة كامنة فينا وعلينا أن نعترف باخطائنا واصلاح ذواتنا قبل الاقدام على مواجهة الاعداء.

الرباط (المغرب)

اِخْتَرْ حَيَاتَكَ... اِخْتَرْ مَوْتَكَ

كريستيان برنار

منشورات
دار الآداب

هذا الكتاب

هل سيدوّن ، يوما ، في دساتيرنا ، حق كلّ رجل وكل امرأة أن يختارا حياتهما ، وخصوصاً أن يختارا موتهما ؟

هذا ما يتمنّاه وينادي به البروفسور كريستيان برنارد الذي يبدي رأيه بجرأة وجلاء لصالح القتل الرحيم والانتحار . وانطلاقاً من أمثلة مأخوذة على السواء من خبرته الشخصية ومن أحداث الحياة السياسية (احتضار فرانكو وتيتو الطويل) يحلّل البروفسور برنارد جوانب القضائية والقانونية والأخلاقية والدينية والمهنيّة لنوعين من القتل الرحيم :

- القتل الرحيم السلبي الذي يرتكز على رفض الطبيب الممارس ، بأي ثمن وبواسطة الترسانة العلاجية والتكنولوجية ، إطالة الحياة العضوية لمريض لا شفاء له .
- القتل الرحيم الايجابي ، الذي يضع حداً ، بحقن كمية كبيرة من المسكّنات مثلاً لمريض يعاني الشدائد ولا يستطيع إنقاذه أي شيء .

ويرى الجرّاح الشهير أن لكل كائن بشري الحق في أن يرفض أوجاعا جسدية أو نفسية مُهينة أو غير محتملة ، وفي أن يموت بسلام وكرامة .

إن هذا الكتاب ، في لغته السهلة التي تجعله في متناول الجميع ، والمؤثّر الى أبعد حد ، سيزيد في إغناء جدل ما يزال في صميم حياتنا .